الرّسالة الهزلية وسؤال السّخرية

د/ عطية فاطمة الزهراء.

قسم اللغة والأدب العربي.

كلية الآداب واللغات.

المركز الجامعي- بريكة -

fatimaattia39@yahoo.Fr

الملخص:

تعد رسالة "الرسالة الهزلية" من رسائل الفكاهة والسخرية التي يلجأ فيها صاحبها إلى عرض موضوعات جادة في قالب ساخر من خلال المبالغة، أو التهويل، أو قلب الحقائق على سبيل التندّر.

وقد تأثر الكتّاب الأندلسيون بما وصلهم من أدب المشارقة في الفكاهة والسخرية؛ هذا والذي لا شك فيه أن ابن زيدون معجب بهؤلاء النوابغ، فراح يستوحي فكاهة الجاحظ في رسالته "التربيع والتدوير"، والمنهج الفكه الساخر لأبي إسحاق الصابي وبديع الزمان الهمذاني، لينسج رسالة تحمل زخما كبيرا من الفكاهة والسخرية، وليصنع لنا المتعة الفنية والأدبية كل على حدة.

الكلمات المفتاحية: ابن زيدون – الرسالة الهزلية – السخرية – السؤال – الهجاء.

Le résumé:

« Al- rissala el - hazlia» est l'une des thèses de l'humour et de l'ironie dans Les quelles, son écrivain (l'auteur) se recours à exposer des thèses importants sous forme ironique, que ce soit par « l'exagération » ou bien par la conversion des r&alités (vérités) via …

Les auteurs d'Andalousie ont été influencés par la littérature d'Orientalisme avec humour et ironie, sans doute qu'Ibn Zaydoun est admiré par ces députés, l'humour d'Al-Jahiz dans sa lettre Quadrature and Rotation et l'approche sarcastique d'Abu Ishaq Al-Saabi et Badi'z-Zaman Al-Hamzani. Beaucoup d'humour et d'ironie, et pour faire notre amusement artistique et littéraire séparément.

Les mots clés: Ibn Zaydoun – Al rissala el hazlia - L'ironie- La question - L'orthographe.

استهلال:

يبدو خطاب السخرية بمختلف أشكاله وتوجهاته خطابا غنيا في نص الرسالة الهزلية، ليتحول إلى جزء من المنظومة التركيبية له، فنحن هنا أمام موضوع جريء عسير، ليس بمقدور أي أديب أن يطرقه إلا إذا رُزق قدرة خاصة، تجمع صورا شتى: الطرافة، الإغراب، الميل إلى الإقذاع، ....الخ.

بناء على هذه المعطيات، تبرز أهمية السخرية جسرا ممتدا بين الواقع وتجربة ابن زيدون السردية، ولا شك أن هذه السخرية هي مظهر من مظاهر النقد التي يسلك بها طرقا خفية ومضمرة، ليضمن فيها آراءه وموقفه في كثير المسائل.

من اليسير أن يدرك المطلع على الرسالة الهزلية لجوء ابن زيدون لتقنية السخرية، بصفتها مساعدة على عرض موضوعات جادة في قالب ساخر، من خلال المبالغة، أو التهويل، أو قلب الحقائق على سبيل التندر، وإن هذه الموضوعات المتعددة ساعدت ابن زيدون على اختيار السخرية سلاحا، وهذا السلاح لا يتصور إلا في موقف العداء والخصومة وبصرف النظر عن ذلك؛ فالسخرية من أساليب المقاومة التي يعبر بها الساخر عن تحديه خصمه أو تعاليه عليه أو يعبر بها عن إنكاره لوضع أو شيء لا يرضيه، والسخرية إما أن تكون من شخص وإما أن تكون من وضع غير مرض، وفي كلتا الحالتين تعبر عن موقف الساخر ودرجة سخطه وإنكاره وعن مقدرته في صوغ السخرية.[1]

وهكذا نرى، أن السخرية لا يتقنها أي إنسان وإنما تحتاج إلى مواهب خاصة؛ لان من الصعب أن تضحك إنسانا أو تسخر منه، فهي مهارة لا بد أن تتوافر لها مجموعة من الصفات, منها: الذكاء وصفاء الروح والحس المرهف وسرعة البديهة والإبداع في التصوير.

أولا: أبعاد شخصية ابن زيدون الهزلية:

انطلاقا من هذا المهاد النظري، اخترنا أن نلج عالم الأدب الأندلسي من زاوية مخصوصة، هي زاوية الأدب الساخر. وقد وجدنا بعد تقليب النصوص أن السخرية حاضرة في إبداع الأندلسيين نثرا وشعرا، نجدها حاضرة فيما جمعه ابن بسام (ت 542هـ) صاحب الذخيرة، والمقري (ت 1041هـ) صاحب النفح.

وكان من نتيجة ذلك أن وجدنا من النصوص الساخرة؛ الرسالة الهزلية[2]، وضمن هذا الصنف من الرسائل تقع الرسالة الهزلية التي نحن بصددها، وهي من ناحية طابعها الهزلي تدخل في إطار رسائل الهجاء الساخر عند الأندلسيين، الذي تطور إلى فن يعرف "بالزرزوريات، وهي التي ابتدعها الكاتب الوزير أبو الحسين بن سراج، وفيها يشفع عند بعض أهل عصره لرجل يعرف بالزرزور".[3]

ولا شك أن هذا اللون الهازل ألصق بذاتية ابن زيدون[4] المعروف بنزعة المجون والدعابة والظرف، التي هي بعض سمات عصره وبيئته، والتي تمتد جذورها في المشرق إلى رسائل الجاحظ، وخصوصا رسالة "التّربيع والتّدوير".[5]

إن هذه الفكرة، تجد لها سندا في مقولة أخرى، أتى بها جودة الركابي "إن ابن زيدون مثّل قرطبة في شخصيته أحسن تمثيل، فقد وصفته المصادر التاريخية بأنه خفيف الروح، كثير الدُعابة، مَيال إلى المجون".[6]

وهو الرأي نفسه، الذي ذهب إليه أحمد ضيف، عندما قال: "وكان لابن زيدون خفة روح ودعابة وميل إلى المجون"[7]، وهذا ما مكنه في أن يسبق غيره من الأدباء، وأن ينال شهرة واسعة بين أترابه.

ولعل خير ما يصور المنزلة التي ارتقاها أديبنا ما قاله صاحب الذخيرة أثناء ترجمة له، ناقلا كلام الأديب ابن حيان أبي مروان الذي عاصر ابن زيدون "قرأت في كتاب أبي مروان بن حيان، وقد أجرى ذكر من اصطنع ابن جهور من رجال دولته فقال: "ونوه أيضا بفتى الآداب وعمدة الظرف(...) ذي الأبوة النبيهة بقرطبة، والوسامة والدراية، وحلاوة المنظوم والسلاطة، وقوة العارضة، والافتتان في المعرفة، كان من أبناء وجوه الفقهاء بقرطبة". [8]

والآن، نلتفت للرسالة، وما وصلنا عنها، فالوارد أن جمال الدين بن نباته المصري قد شرحها في كتاب أسماه "سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون"، إلى جانب شرح محمد بن البنا المصري لها، في كتابه: "العيون"، ناهيك عن ديوان الشاعر، المعنون بـ"ديوان ابن زيدون ورسائله"، المحقق والمشروح من قبل الأستاذ علي عبد العظيم سنة 1975م.

ثانيا: الرسالة الهزلية وميثاق القراءة الساخرة

نستفتح قراءتنا التحليلية لتجربة السخرية عند ابن زيدون، باعتبارها تجربة دفعته نحو تأليف مُؤَلَفِه، ذلك النَّص الهزلي الساخر، الذي وَلَجَ فيه صاحبه عالم الهزء والتهكم من أجل الرد على غريمه الوزير ابن عبدوس [9]، فالرسالة الهزلية تتصل بحياته العاطفية وما اشتملت عليه من حب ومنافسة.

وهكذا، كانت الرسالة الهزلية من بين كثير الرسائل الخالدات في الأدب العربي، باعتبارها "أشهر رسالة أندلسية في موضوع السخرية التّهكميّة"[10].

جميع هذه الأسباب تضيء الخلفية لنا حتى نحسن المناقشة، فمن اليسير أن يدرك المطلع على الرسالة الهزلية لجوء ابن زيدون لتقنية السخرية، بصفتها مساعدة على عرض موضوعات جادة في قالب ساخر، من خلال المبالغة، أو التهويل، أو قلب الحقائق على سبيل التَّندر.

وإن هذه الموضوعات المتعددة ساعدت ابن زيدون على تجسيد شخصية المهجو حسب الموضوع المتناول، وبالتالي، إن الشخصية المهجوة، منافس قوي اصطدمت مع ابن زيدون، هذا الأخير نظم قصائدَ يتحداه بها، "كما تهكم به في الرسالة الشهيرة، حتى اتهمه ابن عبدوس بالتآمر على إرجاع الأمويين فزج به في السّجن" [11]، هذه الأخيرة كتبها قبل سجنه على لسان حظيته ولادة إلى خصمه اللدود ابن عبدوس ساخراً منه، ومُشهّراً به، بعد أن أوفد الأخير لولادة امرأة تستميلها، وترغبها فيه[12].

وعليه، كانت السخرية هي السبب الرئيسي لاستدعاء العدو؛ فإذا كان لم يستطع أن ينتقم منه في الواقع، فلينتقم منهم في الخيال، وإذا كان لا يستطيع أن يقنع معاصريه بتجني هذا عليه مباشرة — في الواقع – فليقنعهم بطريق غير مباشر — في الخيال– من خلال إنتاج نص الرسالة، وليجعل هذا العدو مضغة الأفواه في عصره والعصور التالية، "وإذا كان لا يستطيع أن يكيد له وينفس عمّا بداخله في الواقع، فليزح عن صدره همّ الانتقام منه بأن يطرح مشاعره على الورق".[13]

واضح من كل هذا، أن ابن زيدون أنشأ عالما ساخرا، بعد أن ضاق الشعر عن استيعاب تفاصيل قصته مع ولادة، فلجأ إلى النثر، لتأتي رسالته "نفثة مصدور، ومرآة مشاعر موتور، ومَعرضا لقدرات ابن زيدون المبدع العبقري أمام محبوبته الأديبة، وخصمه الأديب، في تلك البيئة الأديبة، فكانت ملبية لحاجتين:

أ- التبرج بالقدرات الإبداعية في شكل الرسالة ومضمونها.

ب- التنفيس عن مكبوتات الغيرة والغضب بأسلوب الهزل والسخرية الممضة"[14].

ثالثا: الرسالة الهزلية لوحات ساخرة:

إذا ما تحولنا من العتبة إلى النص، ألفينا ابن زيدون وهو يبدع عمله، ويشكل نسيج علاقاته، إنما كان يبني في الآن نفسه، عوالم نصه "محاكيا بناءات موجودة أو مبدعا في نطاق الممكن النوعي، طرائق جديدة في تنظيم بنياته النّصية"[15].

لذلك وجدناه، يعيش مناخا نفسيا محتدم الانفعال، مما أضفى عليه حرارة التجربة الصادقة دون أن يفجر تيار الانفعال الجياش داخلها حبكة البنية الساخرة، التي تسيطر، وإن التوفيق بين هذا وذلك أحد أسرار الإبداع هنا.

وتأسيسا على هذا الطرح، تتكون الرسالة من هيكل سخرية، ذي بنية قارة، يمكن تحديدها كالآتي:

1/ السخرية التهكمية:

وهي "أرقى أنواع الفكاهة لما تحتاجه من ذكاء حاد، وخفة ومكر، وبراعة، وقدرة على الحيلة والخيال، فهي توجه إلى شخص معين، أو إلى أمر ما لتحوّله إلى أضحوكة من خلال ترصد المثالب، ونفي المحاسن، وتصل إلى حد الإقذاع والهجاء، وهي تقوم على التهكم والاستهزاء".[16]

وقد افتتح ابن زيدون رسالته بقدرة فائقة على التلاعب بالكلمة والعبارة، الأمر الذي مكنه من امتلاك القدرة على العبث بشخصية ابن عبدوس؛ يهجوه، يسخر منه، يلعب بشكله، ودخائل نفسه، فيصب عليه جام غضبه، وينعته بالمعايب والمناقص التي لا حصر لها، فيقول فيه: "أمّا بعد، أيُّها المِصابُ بِعقلِه، الموسوم بِجهلِه، البَيِّنُ سَقطُه*، الفَاحشُ غلطُهُ، العَاثرُ في ذَيل اِغتِرارِه**، الأعمَى عن شَمس نَهَاره، السَّاقطُ سُقوطَ الذُّبابِ على الشَّراب، المتهافتُ تهافتَ الفراشِ على الشِّهابِ***، فإن العُجْب أكذبُ، ومعرفةَ المرءِ نفسَه أصْوبُ".[17]

لقد جعل ابن زيدون من ابن عبدوس لوحة ساخرة مكشوفة، فهو – حسبه – لا يملك أدنى صفات الجمال الخُلُقي أو الخَلقي، مما يعني التشنيع والتبشيع لصفاته، في سخرية تهكمية عالية.

إنها سخرية مقذعة، تضع ابن عبدوس في مصاف ضعفاء العقل، وفاسدي الخلق، يتخبط في الجنون والجهالة.

2/ السخرية القائمة على التصوير الكاريكاتوري:

التصوير الكاريكاتوري هو "الرسم الفكاهي الذي يُغالي في إبراز العيوب، وذلك بالتهويل في إبراز السمات الواضحة أو الشاذة في الصورة، بغية إحداث أثر ضحك أو ساخر، من خلال الخطوط القليلة التي تقدم لنا صورة أو مشهدا حيا مجسما، حافلا بالإيحاء، أية في الروعة، يحمل على الانفجار بالضحك". [18]

وإن هذا التصوير الذي يستهدف إضحاك الناس على المهجو وسخريتهم منه، يعتمد "على فن أصيل في رسم شخصية المهجو من ناحية معنوية أو جسمية، ولكنه ليس رسما تصويريا، بل هو رسم كاريكاتوري يبعث على الضحك، ويستعين الشاعر في هذا النوع الأصيل من الهجاء بكل معارف عصره، وبجميع عناصر الفكاهة، والهزل الشائعة بين الناس"[19].

قد اتُّخذ التصوير الكاريكاتوري مادة ثرة للسخرية، ومعينا لا ينضب للهزء والتهكم بشخصية ابن عبدوس، فمن سخرياته في ذلك قوله: "هَجين القَذَالِ**** ، أرعَنُ السِّبالِ***** ، طويلُ العُنق والعِلاوة****** ؛ مُفرطُ الحُمق والغَباوة، جَافي الطَّبع، سيءُ الإجابة والسَّمع، بغيضُ الهيئة، سخيف الذَّهاب والجَيئة، ظاهرُ الوسواسِ، منتنُ الأنفاس، كثير المعايبِ، مشهور المثالب، كَلامك تمتمة******* ، وحديثك غمغمة******** ، وبيانكُ فَهفهَة********* ، وضحككَ قهقهَة، ومشيكُ هَرولة، وغِناك مَسألة********** ، ودينُك زَندقة، وعلمُك مَخرَقة***********"[20].

يتمتع ابن زيدون – فيما رأيناه – بقدرة فائقة في لمح الدقائق والعيوب الجسدية والنفسية، وهذا ما مكنه من العبث بخصمه عبثا لاذعا.

فهو يقف من جسده عند نواحي الضعف والتشويه، فيضخمها وينفخ فيها من روحه الهازئة، حتى يظهرها في أوسع صورة وأغربها تشويها، فلا نكاد ننفك فيها من الضحك المفرط؛ لأنه قد صنع فيها صنيع أصحاب الصور الكاريكاتورية في عصرنا الحاضر، الذي يقوم على إدراك الحركة التي لا تدرك أول وهلة فيضخمها، ويجعلها مرئية بينة لدى كل الناس، وهو بذلك يبعد خصمه من الطبيعة الموجودة في النموذج البشري السَّوي، وبذلك يكون المضحك في الكاريكاتور، وكل هذا ناتج عن المفارقات، التي مثلت لنا هيئة الخصم في أقبح ما تكون عليه خلقة الإنسان.[21]

فمن خلال ما ذكر ابن زيدون، يتبين لنا أن خصمه يتميز بطول العنق مع طول الرأس، وهذا دليل على الحمق عند العرب قديما، وبأنه "ثقيل السمع وبشع المنظر ومنتن الأنفاس، وكلامه به ترديد للتاء، وذلك يعتبر من معايب النطق، وحديثه غمغمة، مثل جعجعة بلا طحين، وبيانه فهفهة، وذلك بتردد الفاء في كلامه لعيب في النطق"[22]، وضحكه قهقهة ومشيه هرولة.

وبتعدد هذه الصفات الذميمة المبالغ فيها لم يبق ولم يترك شيء إلا عابه فيه، وهذا طبعا على لسان ولادة، وهذا ما يعكس نفسية ابن زيدون الغاضبة والباغضة لشخص ابن عبدوس، وهذا التصوير القائم على المفارقات، بقدر ما يوحي بنزعته التهكمية العابثة، فهو يوحي بدقة الملاحظة واتساع المخيلة في مجال السخرية.

وفي مقابل هذه الصورة الكاريكاتورية قدّم لنا ابن زيدون صورة معنوية لنفسية خصمه، نلمسها في الصفات الحسنة، التي ادعتها له المرأة، التي قام بإرسالها إلى ولادة لاستمالتها نحو ابن عبدوس، إذ يقول ابن زيدون على

لسان ولادة: "زاعمةً أن المروءةَ لفظُ أنت معناهُ، والإنسانية اسمٌ أنتَ جسمهُ وهُيولاَه ********** ، قاطعةً ********** أنك انفردتَ بالجمالِ، واستأثرتَ بالكمالِ، واستعليتَ في مراتبِ الجلالِ، واستوليتَ على محاسنِ الخِلالِ، حتى خيّلَت أنّ يوسف – عليه السلام – حاسنك فغَضضْتَ منه"[23].

فابن زيدون يدّعي لخصمه بما زعمته عليه المرأة التي قام بإرسالها، دفاعها عنه وإظهارا لمحاسنه الجسدية، إذ قامت بوصفه على أنه ذو جمال وكمال إلى درجة أن يوسف – عليه السلام – باراك في الحسن، وهذه الادعاءات التي ساقها لنا ابن زيدون ونسبها إلى ابن عبدوس عن طريق المرأة، ماهي إلا على سبيل الهزل والسخرية.

وفي هذه الصورة تبدو لنا سخريته، هادئة مرحة تشعر كل من يسمعها بالضحك، وتدفعه لمتابعتها.

فالصورة التي ادعاها ابن زيدون على ابن عبدوس تبدو متناقضة مع الصورة الأولى التي ادعته له المرأة التي أرسلها إلى ولادة.

ففي **الأولى** يصوره على أنه ذميم الصفات: قبيح الوجه، طويل العنق والعلاوة، أما **الثانية** فهي ادعاء المرأة وذكرها لصفات الحسن والبهاء، وفي مثل هذا التصوير الذي يبدو فيه التهكم الجارف؛ هازا للخصم هزة عنيفة، فهو **تارة** يمدنا بوصفه، **وتارة أخرى** يطلعنا عل وجهة نظر خصمه.

وسخريته من كل ذلك، تبدو لاذعة ومضحكة، فهي لا تنبني على ذوق اجتماعي وأخلاقي، بل تدنو من شهوة الانتقام ونار الغضب نحو غريمه ابن عبدوس، وهي من ذلك لا تخلو من الرقة أحيانا، والمرح أحيانا أخرى، وتوحي بالدقة والطرف، كما توحي بالنزوح إلى العبث، والشغف بالضحك والإضحاك، كما تبدو لنا ألفاظه جزلة مع قوة الوصف والعذوبة ومتانة السبك وجمال الصياغة، وهذا كله لكي يلفت الانتباه ويدعو إلى الضحك والاستهزاء بخصمه.

وهذا النمط من التصوير جديد في النثر العربي، ولكنه موجود في الشعر؛ وهو ما يمكن أن نسميه بالهجاء الساخر، وقد عُرف به الجاحظ، وقبله عُرف به ابن الرومي.

3/ مقارنة الخصم بشيء مستهجن وآخر مستحسن:

وذلك نجده في قول ابن زيدون على لسان ولادة عن ابن عبدوس: "السّاقط سقوطَ الذُباب على الشَّراب المتهافتِ تَهافتَ الفَراش في الشِّهاب"[24].

الملاحظ أن ابن زيدون يشبه ابن عبدوس بالذباب، هذا الأخير المعروف بالقذارة وبعدم الكلل أو الملل، وهذا حال ابن عبدوس الذي لا يكل ولا يمل في طلب مودة ولادة، وفي هذه الصورة نرى تشبيها دقيقا بين تصرفات ابن عبدوس مع ولادة، وهو الفعل نفسه، الذي يقوم به الذباب، وهو شاهد آخر يسوقه – لنا – ابن زيدون يوضح فيه قدرته الفائقة في التشبيه الدقيق، وطاقته في التهكم والعبث بخصمه مشوها صورته، لكي يظهر بمظهر المحرج أمام الجميع، ومن جهة ثانية فيشبهه بالفراش؛ وهو شيء مستحسن من الطبيعة على عكس الصورة الأولى.

لقد قام ابن زيدون بتشبيه دقيق لكل الأمور والأفعال التي يقوم بها ابن عبدوس من أجل استمالة ولادة إليه بواسطة المرأة، فمن خلال هذه القطعة نرى بأنها تعكس جانبين متناقضين؛ **أحدهما:** تشبيه بغيض ولا يطيقه أحد؛ وهو تشبيه مستهجن، وبذلك يحط من قيمة وشأن خصمه، أما **المقارنة الثانية:** فيشبهه بشيء مستحسن فيرفع من همة وقيمة خصمه.

فبالنسبة لمقارنته بالذباب؛ وهو حشرة بغيضة شكلا وفعلا – لما فيها من أضرار – لدليل على أن طباعه دنيئة وسيئة للغاية، وفي هذا ما يدل على العبث والاستهزاء، بعد ذكر صفاته الحميدة، التي ادعته له المرأة. أما الجانب الثاني، فنراه يقارنه بأشياء مستحسنة من الطبيعة؛ وهي الفراش بما يحمله من صفات جميلة، وخِلال حميدة.

وبهذه المقارنة المتضمنة لهذه المفارقة يستمد ابن زيدون فن السخرية من خصمه، وهذا أيضا ما فعله عندما أظهره بالصفات القبيحة، فمن خلال كل هذا، ليست لدينا حقيقة يمكن أن نطمئن إليها، فابن زيدون يعبث بخصمه يمينا وشمالا وشرقا وغربا وشمالا وجنوبا، فهو لا يستقر على حال معينة تارة يرفعه وتارة يخفضه.

4/ المقارنة بالشخصيات الدنيئة:

وتمثل هذا النوع من السخرية، في تلك الصورة الساخرة، التي قلّل فيها من شأن خصمه على لسان ولادة: "حتىَّ إنَّ باقلاً موصوفٌ بالبلاغةِ إذا قَرن بك، وهَبَنّقَة ********** مُستحقُ لاسم العقلِ إذا أَضيف إليكَ، وطُويسًا ********** مأثورُ عنه يُمنُ الطائرِ إذا قيسَ عليكَ"[25].

في القطعة النثرية السابقة، نرى ابن زيدون يُقارن خصمه ابن عبدوس بباقل بن عمرو بن ثعلبة الإيادي، الرجل الجاهلي، الذي يُضرب به المثل في العيّ والبلاهة، وثقل اللسان، والعجز عن البيان.

ولعلّ ما يمكن إضافته هنا، أن باقلا هذا رغم بلاهته وعجزه، يوصف بالبلاغة والبيان حسب ابن زيدون، إذا ما قورن بابن عبدوس، وهذا من أجل الحطّ من شأن خصمه، بصورة مشوهة مثيرة للضحك، لما فيها من مبالغة مفرطة، وتضخيم مهول.

ولم يكتف ابن زيدون بذلك، بل قارنه بِهبنقة، ذلك الرجل المسكين، الذي يُضرب به المثل في الغباء الشديد والحمق، وهبنقة هذا عاقل إذا أضيف إلى ابن عبدوس، وهذه سخرية لاذعة تهكمية، ليجرد خصمه من كل شيء جيد أو صفة جميلة أو خلة حميدة.

ويسترسل ابن زيدون بمقارنة خصمه، وهذه المرة قارنه بطُويس، الذي يُضرب به المثل في الشؤم والتشاؤم، فقد قيل فيه: أشأم من طُويس.

فقد كان مشؤوماً؛ لأنه ولد يوم توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم، وفطم يوم توفي أبو بكر الصديق، واحتلم يوم قتل عمر، وتزوج يوم قتل عثمان، وولد ولد يوم قتل علي رضي الله عنه.

وهكذا، يعتمد ابن زيدون في أسلوبه الساخر على المقارنة بين ابن عبدوس وطويس الشؤوم، وهي مقارنة عجيبة، فلا وجه مقارنة بينهما، فابن عبدوس الشؤم كله، ومقارنته بهذه الصورة، كان بدافع أن يستمد منها ما

يمكن من مفارقات ومناقضات مختلفة، مستغلا قدرته الفنية من خلال اللّعب بالألفاظ بمختلف المعاني غاية إثارة الضحك على ابن عبدوس.

5/ فن السخرية القائم على المدح:

كثيرا ما يلجأ الأدباء الساخرون إلى "أسلوب تأكيد التهكم بما يشبه المدح، وهو أسلوب المدح المقلوب، والذي نعته نقاد العرب في القرون الوسطى بالقدح عن طريق المدح" [26]، أو تأكيد الذم بما يشبه المدح، وفي هذه الحالة تكون السخرية غير مباشرة، فيها تلطف، وقد تكون طريفة في غاية الطرافة، تطيب لها النفس ظنا منها أول الأمر أن ذلك مدح ما بعده مدح.[27]

نقف في ثنايا هذه الرسالة على مواطن عدة للسخرية القائمة على المدح، وليس أدل على هذا من أن نشير إلى المقطع الآتي: " وأنّ قارونَ أصابَ بعض ما كَنزت، والنّطِفَ عثرَ على فضلِ ما ركزتَ، وكِسرى حملَ غاشيتكَ، وقيصرَ رعىَ ماشيتكَ، والإسكندرَ قتلَ داراً في طاعتكَ، وأردشيرَ جاهدَ ملوكَ الطوائفِ لخُروجهم عن جماعتكَ، والضّحاك استدعىَ مُسالمتكَ، وجَذيمة الأبرش تمنى مُنادمتك، وشِيرينَ قد نافستْ بُوران فيك، وبلقيس غايرتْ الزَّباء عليك، وأن مالكَ بن نويرة إنما ردفَ لك، وعُروة بن جعفر إنما رحل إليك، وكُليب بن ربيعة إنما حمىَ المرعىَ بعزتك، وجسّاساً إنما قتله بأنفتك، ومُهلهلاً إنما طلب ثأرهُ بِهمتك(...) وحاتماً إنما جاد بوفركَ، ولقىَ الأضياف ببِشرِك ، وزيد بن مهلهل إنّما ركبَ بفخِذيك، والسُّليك بن السّلكة إنما عدا على رجليك، وعامر بن مالك إنما لاَعب الأسنة بيديك"[28].

يواصل ابن زيدون رسالته الهزلية بسرد موجز مدهش لأحداث تاريخ العرب، والإشارة إلى رجالاتهم ورموزهم بمهارة فائقة، وسخرية لاذعة من عبدوس الوزير المتماهي بولّادته العشيقة الجديدة.

فواضح جدا في القطعة الماضية أن ابن زيدون قد انتحل الجد متعمدا، ليثير التهكم والسخرية البعيدة عن التعبير الساذج، فانتقل من التشهير بعيوب ابن عبدوس إلى تعداد فضائله المتنوعة، بطريقة توهمنا في الظاهر أن الخصم على حظ كبير من الخصال الحميدة، والنعم العديدة، وذلك بالرفع من شأنه وقدره على ملوك وقادة وعظماء وأدباء الجاهلية من العرب والفرس.

حيث وضع ابن زيدون خصمه في مكانة أرقى من الملوك، لا يقارنون معه، في قدره، وحسبه، ونسبه، وثروته، وأدبه، وذكاءه، وجماله (... وغيرها من الصفات)، وهذا طبعا ليس على سبيل المدح، بل سخرية واستهزاء من خصمه.

ولم يقف ابن زيدون عند هذا الحد، بل تعدى ذلك إلى مدحه على حساب علماء الطب والنبات "وأنّ هِرمس أعطى بلينوس ما أخذ منك، وأفلاطون أورد على أرسطو طاليس ما نقل عنك ، وبطليموس سوَّى الإسطرلاب بتدبيرك، وصوَّر الكرة على تقديرك، وبُقراط علم العِلل والأمراض بلطف حسك، وجالينوس عرف طبائع الحشائش بدقة حدسك، وكلاهما قلدك في العلاج، وسألك عن المزاج، واستوصفك تركيب الأعضاء، واستشارك في الدواء والداء"[29].

في هذا نرى ابن زيدون مقلدا، يجري في سخريته مجرى الجاحظ في رسالته التربيع والتدوير، فيخلع على ابن عبدوس ما خلعه الجاحظ على أحمد بن عبد الوهاب، من صفات ليست فيه، إيغالا في الازدراء به، وإمعانا في السخرية منه "وظل في نحو خمسين صفحة من القطع الكبير يخلع عليه (...) وصورا أخرى ساخرة من المعرفة، تتخذ شكل أسئلة في تاريخ العرب والأمم القديمة، وفي العلوم: الكيمياء وغير الكيمياء(...) وفي الفلسفة والمنطق، مع سؤاله عن أسماء كثيرين من الرجال عربا، وغير عرب في ميادين الثقافات المختلفة"[30].

فابن زيدون يعمد إلى التّعريض بغريمه من جهته، عندما نسب العلوم والمعارف إليه، لا إلى أصحابها المعروفين بها، مدعيا أن جميعهم تصرفوا طوع إرادته، محاولين التقرب منه، والتعلم على يديه، فهو وحيد عصره وفريد زمانه.

6/ السخرية القائمة على المبالغة:

لقد استعان ابن زيدون في فنه السّاخر بضروب من المغالطات والمفارقات، وهذا يتجلى بشكل واضح في توظيفه لخاصية المبالغة، التي تعتمد مجالين مفتوحين؛ إسباغ النقائض والفضائل، إما بغرض التهوين، أو بغرض التهويل، ومن قبيل النهوين، التصوير الكاريكاتوري الذي مرّ بنا.

ومن قبيل التهويل، قول ابن زيدون في اسباغ الإيهام بالذكاء والعلم والسبق إلى كل فن على خصمه: " وإنّك الّذي أقام البرَاهين ، ووضعَ القَوانين، وحدّ الماهية، وبيّنَ الكيفية والكميّة، وناظرَ في الجوهرِ والعَرَض، وميز الصِّحة من المرض، وفك المعمّى، وفصّلَ بين الاسم والمسمى، وصرّف وقسّم، وعدّل وقوّم، وصنّف الأسماء والأفعال، وبوّب الظّرف والحالَ، وبنىَ وأعرب، ونفىَ وتعجّب، ووصلَ وقطعَ، وثنىّ وجمع، وأظهر وأضمرَ، واستفهم وأخبرَ، وأهمل وقيّد، وأرسل وأسندَ، وبحثَ ونظر، وتصفحَ الأديان، ورجّح بين مذهبي ماني وغيلان"[31].

فالمبالغة واضحة في المقطع السابق، وهي مبالغة يهدف بها الحط من شأن غريمه ابن عبدوس، ليوحي لنا بأن – غريمه – عالم العلماء، وذلك لاعتبارات كثيرة من بينها: أنه أول من وضع حدود وتفاصيل المسائل والقضايا، وأول من قال أن هناك الهين:إله النور وإله الظلام ، وهو صاحب مذهب كلامي ، قائم يخالف فيه مبدأ أهل السنة و الجماعة، من خلال تقريرهم أن كل ما كان، وما هو كائن، وما سيكون مستقبلاً، إنما هو أمر الله و قدره؛ ويقرر أن يناقضهم في ذلك، حين قرر أن الإنسان مختار، وأنه سوف يحاسب على اختياره.

ولسنا بحاجة – بعد هذا – إلى تتبع تميز خصمه، وسبقه في كل العلوم، فحسبنا – هنا – أن نقول: إن نسبة المعرفة والعلم للخصم ماهي إلا صورة عكسية عبثية، يظهره فيها جاهلا غبيا لا يفقه شيئا في مسائل الحياة.

ومن كل هذا، نعرف لماذا كان ابن زيدون يهزل ويجد، ويبني فنه الساخر، تارة على ضروب من المكر والعبث، وتارة ثانية على التزيد والمبالغة، بغية السيطرة على عقل القارئ، فلا يشعر معه بالملل أو الاستهجان، وبالتالي، استيعاب الموضوع والتفاعل معه.

وكأن هذا القدر – وحده – من التحقير بواسطة التّعظيم الكاذب لا يكفي، فإذا به يجعله قادرا على صنع الخوارق والمعجزات، وعمل المستحيل من الأعمال، فيقول: "وإنكَ لو شئتَ خرقتَ العادات، وخالفتَ

المعهودات، فأحلتَ البحار عذبةً، وأعدت السّلام رطبة، ونقلت غدا فصار أمسا، وزدت في العناصر فكانت خمسا"[32].

7/ السخرية القائمة على ألسنة النساء:

المرأة هي الأساس الأول في بناء المجتمع، ومركز الهيكل الأسري كله، تمثل قيمة حقيقية في بنية المجتمع، وتترك بشخصيتها ومبادئها، وأهدافها آثارا واضحة لدى الآخر.

وإن أحسن وضع للمرأة عند العرب في العصور الوسطى، كانت تحظى به المرأة العربية في الأندلس، حيث تمتعت المرأة بمكانة عالية في المجتمع، فكانت انطلاقتها في المجتمع الأندلسي أوسع ممّا كانت عليه في البلدان العربية والإسلامية الأخرى.

وقد تبوأت المرأة الأندلسية مكانة سامية في حياة الرجل، لذا وجدت من الرجال إعزازا وتكريما، وهذا ما أكدته المصادر الأدبية والتاريخية المتعلقة بالأندلس.

ومن النسوة اللاتي تمهدت لهن سبل المجد، ونلن شهرة واسعة؛ ولادة بنت الخليفة المستكفي، أشهر نساء الأندلس، أميرة من أميرات بني أمية، وإحدى النساء النابغات في الشعر وفنون القول.

هذا والذي لا شك فيه، أن دافع ابن زيدون إلى كتابة الرسالة الهزلية، هو" وَجدُه على الوزير ابن عبدوس، وحقده عليه، لمنافسته إياه في حب ولادة، وهو يريد أن ينال منه، فهداه تفكيره إلى أن يكتب رسالته هذه إليه على لسان ولادة نفسها، حتى يقطع الطريق عليه في صلته بها، وحتى يكون النيل منه أعمق جرحا، وأكثر حرجا".[33]

وهذا ما حدث فعلا، فلقد قطعت العلاقة بينهما، بفعل اشتعال نار الغيرة في قلبها " فهي تغار عليه من جاريتها السوداء، حين أحست ميله إليها وعطفه عليها"[34]، فنقمت عليه، بقولها:

لو كنت تنصف في الهوى ما بيننا لم تهـو جـاريتي ولم تتخيـر

وتركت غـصنا مثمـرا بجمـالـــه وجنحت للغصن الذي لم يثمر[35]

وفي مقابل هذه الصورة المعبرة عن غيرة ولادة، قدّم لنا ابن زيدون صورة انتقاص وازدراء تغيب شخصية ابن عبدوس، وتسلبها "كل قدراتها العقلية والمعنوية، ونفي كل فضيلة عنها" [36]، غير أن صورة ابن عبدوس لا تلبث أن تظهر في هذا الخطاب: "وإنّك راسلتني مستهديا من صلتي ما صفرت منه أيدي أمثالك، متصديا من خلتي لما قرعت دونه أنوف أشكالك، مرسلا خليلتك مرتادة، مستعملا عشيقتك قواده، كاذبا نفسك أنّك ستنزل عنها إليّ، وتخلف بعدها عليّ".[37]

وإن مثول صورة ابن عبدوس بهذا الشكل، كان في سياق المواجهة، فلا يغيب عن بالنا "أن الخطاب يجري على لسان ولادة، فابن زيدون ينطقها بلسانه، ويجري على لسانها من الذم والتهكم ما يوافق هواه، وبرغم تغير صورة أو نمط الخطاب من الغياب إلى الحضور، فقد ظل محافظا على حدّته وروحه الهجائية أو السبابية

المباشرة، تأكيدا على احتدام عاطفة السّخط، وتعاظم الشعور بالنقمة والحنق والازدراء؛ حيث يؤدي الخطاب المباشر دوره الهجائي – دون وسيط – بدرجة أكثر حدّة وسلاطة".[38]

وتشتد دائرة الاحتقار لشخص ابن عبدوس، وهذا عندما ترفضه ولادة جادعة أنفه: قائلة له: "وإنّك راسلتني مستهديا من صلتي ما صفرت منه أيدي أمثالك، متصديا من خلتي لما قرعت دونه أنوف أشكالك"، وهذه الصورة هي قمة الاحتقار والانتقاص؛ لأن الأنف كما هو معروف عند العرب يعني الكرامة والعزة.

وولادة – حسب ابن زيدون – مرغت أنف خصمه في التراب، حين جعلته ديوثا لا يغار على أهله وزوجته، التي يراها رسول غرام تسعى بينه وبين حبيبته، لذا تراها تهاجمه بقوة "مرسلا خليلتك مرتادة، مستعملا عشيقتك قواده".

ختام:

يمكننا القول أخيرا: إن الكتابة الساخرة واحدة من أرقى فنون الكتابة، وأصعبها، كونها تتطلب ثقافة واسعة، ودراسة شاملة لأحوال الناس والمجتمع.

وبالتالي، إن فن السخرية في نص الرسالة الهزلية لم يعد تقنية من تقنيات الدلالة فحسب، بل تعدى ذلك ليصبح هدفا في كتاباته، وعنصرا هاما يشكل ميزة من مميزات أدبه، حيث كانت السخرية طابعه الخاص في الكتابة والإبداع. ومن جهة ثانية، اعتبر الكاتب السخرية سلاحا لمهاجمة غريمه، فقد اتخذت لديه مادة لقلمه خاصة مع تردي علاقته بولادة الحب الأبدي له.

إن المؤلف، وهو يقدم نصه، جعل من السخرية صورا مرمزة ساعدت في بناء حيثياته، ولعلّ إنتاج النص لجملة من الصور الساخرة أعطى إمكانية هامة لقراءتها نقديا، انطلاقا من حضور صورة السخرية نصا مهيمنا وفاعلا في الرسالة الهزلية، ذلك أنّ وظيفة تكاملية وتقابلية بين عالمين يبدوان في الظاهر، مختلفين؛ بين نص السخرية الذي يحيل على اللاواقع واللامتناهي، وما يحفل به من تفكك ومتخيل، وبين نص الواقع الذي يواجهه السارد، وما يحيل عليه من علاقات وعداوات ومشاكل.

هذا التلاؤم الواقع بين النصين، يبدأ تماما من معطى السخرية، وأسئلتها المرموزة، وما تطرحه من أحداث متخيلة، كانت في حقيقتها واقعا معيشا للسارد، في زمن قريب جدا منه، ومن ثمة، إن ابن زيدون يعي جيدا معاناته الواقعية، كما يعي جيدا وظيفة السخرية ودورها، وعيا يربط صدقية الواقع، بخيالية السخرية، التي أصبحت واقعا استطاعت التعبير عن حال واقع ابن زيدون وعلاقاته؛ لأنها الأقدر على التعبير، فهي موقف فكري اتجاه الموجودات والكائنات.

المصادر والمراجع:

[1] ينظر: التصوير الساخر في القرآن الكريم, عبد الحليم حنفي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1992م. ص:14.

[2] الرسالة الهزلية: التي كتبها على لسان ولادة بنت المستكفي إلى ابن عبدوس، وقد حمل عليه فيها، وأوجعه سخرية وتهكما، وتتسم هذه الرسالة بالنقد اللاذع والسخرية المريرة، وتعتمد على الأسلوب التهكمي المثير للضحك، كما تحمل عاطفة قوية عنيفة من المشاعر المتباينة: الغيرة، والبغض، والحب، والحقد.

[3] نبيل خالد رباح أبو علي: نقد النثر في تراث العرب النقدي (حتى نهاية العصر العباسي 656هـ)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، د.ط، 1993م. ص:281.

[4] ينظر في ترجمة ابن زيدون: ابن بسام: الذخيرة، ص: 336، الصفدي: تمام المتون، ص: من 07 إلى 20، ابن خاقان: القلائد، ص: 79، عبد الواحد المراكشي: المعجب، ص:162، ابن سعيد: المغرب، ص: 63، وغيرهم.

[5] ينظر: مصطفى الشكعه: الأدب الأندلسي (موضوعاته وفنونه)، دار العلم للملايين، لبنان، ط:09، 1997م. ص:593.

[6] جودة الركابي: في الأدب الأندلسي، دار المعارف، مصر، ط: 03، 1970م. ص:166.

[7] أحمد ضيف: بلاغة العرب في الأندلس، دار المعارف للطباعة والنشر، سوسة: تونس، ط:02، 1998م. ص:76.

[8] أبو الحسن علي بن بسام الشنتريني: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ق:01، مج:01، ص:337.

[9] هو أبو عامر أحمد بن عبدوس، ولي الوزارة بقرطبة لأبي الحزم بن جهور، وكان صديقاً لابن زيدون قبل هذه الخصومة، وكان يدعي حفظ الشعر وقرضه، توفي سنة 472هـ أو 482هـ على أقوال مختلفة. انظر: ابن سعيد المغربي، علي بن موسى (685هـ / 1128م) رايات المبرزين وغايات المميزين، تحقيق: عبد المتعال القاضي، لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة، 1973م، ص38. المقري، نفح الطيب، ج4، ص207، 208، ج3، ص 100، 269، وقد أورد له المقري بيتين شعر في هجاء بعض القضاة. بن بسام الشنتريني: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ق: 01، مج:01، ص:432.

[10] فايز القيسي: أدب الرسائل في الأندلس في القرن الخامس الهجري، دار البشير للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط1، 1989م. ص:234.

[11] حسن جاد حسن: ابن زيدون (عصره، حياته، أدبه)، طبعة المنيرة، الأزهر، 1955م، ص:66.

[12] ينظر: عبد الحليم حسين الهروط: التناصّ في رسائل ابن زيدون، catch1000.blogspot.com/2015/07/463.htm ص:127.

[13] ناصر عبد الرزاق الموافي: القصة العربية: عصر الإبداع (دراسة للسرد القصصي في القرن الرابع الهجري)، دار النشر للجامعات، مصر، ط 3، 1417هـ- 1997م، ص: 65.

[14] أدي ولد آدب: الرسالة الهزلية (قراءة في الوجه الآخر لابن زيدون)، ص:234.

[15] عبد الحق بلعابد: عتبات: جيرار جينات من النص إلى المناص، الدار العربية للعلوم ناشرون، لبنان، ط:01، 1429هـ- 2008م، ص:14.

[16] فايز القيسي: أدب الرسائل في الأندلس في القرن الخامس الهجري، ص:233.

* سقط القول: خطؤه.

** الاغترار: الغفلة.

*** الشهاب: الشعلة من النار.

[17] جمال الدين بن نباته المصري: سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، د.د، د.ط، د.ت، ص:03.

[18] رابح العوبي: فن السخرية في أدب الجاحظ(من خلال كتاب التربيع والتدوير، والبخلاء، والحيوان)، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ط: 01، 1409هـ – 1989م. ص:366.

**** هجين القذال: كناية عن خسة الأصل.

***** أرعن السّبال: السبال: الشنب، يريد القول إنه أحمق.

****** طويل العنق والعلاوة: العلاوة: الرأس، وطول العنق والرأس عند العرب دليل على الحماقة.

******* تمتمة: التردد في التاء، وهي من معايب النطق.

******** غمغمة: أن تسمع الصوت، ولا تتبين الكلمات والحروف.

********* فهفهة: هي في النطق ترديد الفاء في الكلام.

********** غناك مسألة: يريد أن ماله من سؤال الناس.

********** مخرقة: من الخرق وهو الحمق.

[19] فوزي عيسى: الهجاء في الأدب الأندلسي، دار المعارف، القاهرة، ط12، د.ت، ص:212- 213.

[20] المصدر نفسه، ص:06.

[21] ينظر: حنا الفاخوري: الموجز في الأدب العربي وتاريخه، دار الجيل، بيروت، د.ط، د.ت، مج:02، ص:602.

[22] حميد ادم الثويني: فن الأسلوب (دراسة وتطبيق عبر العصور)، دار صفاء للنشر والتوزيع، عمان، ط:01، 2006م، ص:708.

********** الهيولا: المادة.

********** قاطعة: موقنة.

[23] جمال الدين بن نباته المصري: سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون، ص:03.

[24] المصدر نفسه، ص:03.

********** هبنقة: واسمه يزيد بن ثروان القيسي، من قيس ثعلبة، وهو جاهلي، يلقب بذي الودعات؛ لأنه جعل في عنقه قلادة من ودع وعظام وخزف، وقال: أخشى أن أضل نفسي ففعلت، ذلك لأعرفها به، فحولت القلادة ذات ليلة من عنقه لعنق أخيه، فلما أصبح قال: يا أخي، أنت أنا فمن أنا؟. ينظر: الحافظ جمال الدين أبي الفرج عبد الرحمن بن الجوزي القرشي البغدادي، أخبار الحمقى والمغفلين، شرحه: عبد الأمير مهنا، دار الفكر اللبناني الأولى، د.ط، 1410هـ – 1990م. ص:43.

********** طويس: طويس اسمه عيسى بن عبد الله أبو عبد المنعم المدني مولى بني مخزوم. وكنيته أبو عبد المنعم، طويس لقب غلب عليه.

[25] جمال الدين بن نباته المصري: سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون، ص:06.

[26] رابح العوبي: فن السخرية في أدب الجاحظ (من خلال كتاب التربيع والتدوير، والبخلاء، والحيوان)، ص:130.

[27] المرجع نفسه، ص:130. (بتصرف).

[28] جمال الدين بن نباته المصري: سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون، ص:03، 04.

[29] المصدر نفسه، ص:04.

[30] شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي (عصر الدول والإمارات الأندلس)، دار المعارف، القاهرة، ط:05، 2009م. ص:465.

********** ماني: صاحب فرقة دينية عند الفرس قبل الإسلام، وهو يقول بأن هناك إلهين.

********** غيلان: هو غيلان بن مسلم الدمشقي، من أعلام الوعاظ والخطباء والكتاب البلغاء، أول من تكلم في القدر حين أكد أن الإنسان مختار، وأنه سوف يحاسب على اختياره.

[31] جمال الدين بن نباته المصري: سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون، ص: 04، 05.

[32] المصدر نفسه، ص:05.

[33] مصطفى الشكعه: الأدب الأندلسي (موضوعاته وفنونه)، ص:594.

[34] هيفاء شاكري: شاعر الحب والجمال ابن زيدون(394هـ– 463هـ / 1004م- 1070م)، شبكة الألوكة، ص:46.

[35] علي عبد العظيم: ديوان ابن زيدون ورسائله، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، د.د، د.ط، د.ت، ص:33.

[36] فوزي عيسى: الرسالة الأدبية في النثر الأندلسي، دار المعرفة الجامعية، مصر، دط، 2002م. ص:65.

[37] جمال الدين بن نباته المصري: سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون، ص:03.

[38] فوزي عيسى: الرسالة الأدبية في النثر الأندلسي، ص:65، 66.